شجرة الخلد

سعد القرش



شجرة الخـــلد

قصص قصيرة

سعد القرش

لوحة الغـــلاف : للفنان إيلي أبو رجيلي

الطبعة العربية الأولى : يناير ١٩٩٨

رقم الإيداع : ٩٨/٢٥٢٢

الترقيم الدولي: I. S. B. N 977-291-067-5



السلسلة الأدبية

رئيس المركز
على عبد الحميد

مدير المركز
محمود عبد الحميد

المشرف العام
على السلسلة الأدبية
خيرى عبد الجواد

الجمع والصف الإلكترونى
مركز الحضارة العربية
تنفيذ :عبير كمال خضر

٤ ش العلمين عمارات الأوقاف
ميدان الكيت كات
تليفاكس : ٣٤٤٨٣٦٨

سعد القرش

شجرة الخلد

قصص قصيرة



كتبت قصص هذه
المجموعة فى الفترة من
١٩٨٩ حتى ١٩٩٤
ونشرت بمجلات :

- إبداع
- أخبار الأدب
- أدب ونقد
- حواء
- القاهرة
- الناقد
- الثقافة الجديدة
- نصف الدنيا

إلى

منى حليم

القســـــم الأول

شجرة الخلد

فى صعوده إلى حجرة السطوح . تخلى عن غضبه لأول مرة . ألفة ما جرت بينه وبين باب شقة الدور الأخير .. فى منتصف الليل ، يعود هو وصاحبه ، مثقلين بما يحملان من عشاء خفيف .. بالضبط أمام هذه الشقة تتكسر تحت الأقدام عظام لرؤوس أسماك ، وتندفع أمامهما قطة مذعورة .

امتصت المساءات الفائتة بقايا الضيق . ذابت مصمصمة الشفاة ، ترسبت فى أعماقهما ، فيمايشبه الضحكات غير المفهومة .. ثم ينشغلان بالعشاء والثرثرة. يطلان على مدينة تنكمش على نفسها ليلاً . يقسم كلاهماأنه سيطوعها لأمره يوماً ما . تشحب الألوان . تحت أجفان الليل تختفى المنازل مغتسلة بالصمت والضباب . تغلق النوافذ على الأسرار .كم امرأة فى هذه المدينة تتحمل هجر زوجها لها أكثر من ليلة ؟ هل يفضل الرجال الاستلقاء على زوجاتهم - أو غيرهن -عرايا المؤخرة؟ .. آه يا قاهرة . يشير صاحبه إلى الأحياء الراقية ، بصوت عال يؤكد عدم تنازله عن الإقامة بأى منها . أنا المعز لدين الله .. المعز لنفسه . تعلو أصوات الهمس من الشقق المقابلة . بتنهيدة أقرب إلى الرفض يوضح تمسكه بحى العباسية.

خلت له الحجرة . لا يرى إلا فراغاً يضيق به . أسبوع كامل ، لا يعلم كيف يمر عليه حتى يعود صاحبه . هل أصبح المكان مناسباً لدعوة الزملاء وبعض الزميلات على الغداء ؟ فى اللحظة الأخيرة ، سيعتذر لهم إلا واحدة. لا يستبعد قسوة ردها ، أليس من الجائز أن تكون فى انتظار إشارة ؟ أيا كان الرد فهو أخف من صفعة تلقاها يوم تلصص على جارته الصغيرة ، زوجة الثرى الكبير ، بعد ليلة عمل شاقة خذله جسمه من وقت لآخر ،

وكلما أفاق ، اكتفى بمسح التراب العالق بجبهته بفعل ارتطامها بالشيش ، أغلقت الحسناء نافذتها بعصبية وهي ترشقه بشتائم ألهبت أذنيه .

يمنح نفسه الحق في كل شئ ، إلا الكلام عن جارة الدور الأخير. كثيراً ما أقسم لصاحبه أنه لم يرها ، وإن كان يدرك أنها تراقبه في هبوطه ، وتتابعه من الشرفة . دون أن تواتيه الجرأة على مبادلتها النظرات الصامتة . هذه الليلة ، عاد مبكراً . طقوس الصعود ناقصة . درجات السلم نظيفة ، بلا عظام ولا قطط .للحظة نظر إلى الباب . كل شئ هادئ ، هل يمد يديه إلى صفحة الماء ؟ أو يغمر فيه وجهه دون تهشم صورته ؟ .. بمجرد دخوله الحجرة . داعب أعماقه صوت الصمت الساري في الضوء الخافت، هو وجه الماء ، يرفض لمسه ، يكفيه رؤية وجهه في صفائه.

لم يسمع لها صوتاً ، النظرة المنكسرة دعته للهبوط ، على الدرجة العليا للسلم وقف عند حافة الكون ، هل يركل الأرض بيمناه ؟ دفعها أمامه في تردد، خشية الانزلاق أو التعثر. اندفع هابطاً، وقلبه يعيده إلى سطح الماء ، يطفو به ، وهو يتعجل الوصول ، غريقاً كان لايخاف البلل.

كانت قلقة وخائفة ، كاد يسألها عما إذا كان قد رآها من قبل ، الوجه صبوح ، وأليف . لايدعو إلى المغامرة . لماذا تخمد النار المقدسة داخله ، ولا تخلف جمراً ؟ ، متى تتخلص من هذا الدرويش ؟ هل تستطيع أن تشدو بأغنية مناسبة ؟ .. تبادلا حواراً بنظرات عابرة . انتهى بقبوله الصامت للدخول . تحامل على نفسه ، وهى أطرقت، تبحث عن نافذة تطل منها على عينيه.أدار لها ظهره ، ومشى إلى النافذة تسلق سؤالها كتفيه . نافذاً إلى أذنيه:

- أنت وقفت أمام الباب الليلة بالذات.

أراد أن يمنح الموقف بعض المرح :

- الليلة الثالثة لا أتعثر بالعظام .. أو القطط ، أو .. رؤوس السمك !

أفلت منه ذيل ابتسامة :

- نصح الطبيب أبى بتناول الجبن فقط .. وأنا شبه صائمة .

تساءل بإشارة إلى حجرة مغلقة . همّ بالانصراف . طمأنته بهدوء:

- أبى لا يسمع . عجز عن الحركة منذ يومين. أمس ذهب بصعوبة إلى الحمام ، واليوم نقلته إلى حجرته .

بلا إرادة منها بكت .. لو يستطيع أن يجفف دموعها. يخشى الاقتراب من الظل ، مهما تكن حرارة الشمس .. أحاطت نفسها بنفسها. وهو يدعى عدم الفهم. تنحنى الشمس نحو المغيب ، يمتد ظل شعرها ، وهو لا يقترب من الشجرة . فى المسافة الفاصلة يقف ، يحتويها فى صدره ، يغيب عن نفسه .. عنها .. عن صاحبه .. عن الأب القعيد . يطلق الدرويش أغنية شجية ، تتجاوب معها كائنات الليل ، عند المقطع الأخيريقول :

- لا أعرف كيف أساعدك .

- يكفينى هذا .

- المسألة .. ثم إن أباك .. وربما صاحبى .. أقصد ..

انتبهت لصورة داخل إطار مذهب لعريس وعروسه . وضعت يدهاعلى قلبها ، اهتزت شفتاها بحروف مبهمة . ثم استدارت :

- هذا يكفينى ، ولا تحدثنى عن صاحبك . ألم يقل لك ؟

-.........؟

- قبل أيام طلب يدى ، أبى وافق لما عرضت عليه الأمر ، وانتظره لكن سافر .. ولن يعود.

- هذه ليلة المفاجآت!

واصلت حديثها كأنها تكلم نفسها :

- أنا تجاويت معه ، وفى اليوم التالى، جلس فى مواجهتى ، وهمس لنفسه متباهياً " ما رأيت مثل هذا ...

ابتلت الحروف بالدموع ، وهو يقفز إلى حجرة السطوح ، كان صاحبه عائداً منتشياً، يرطن بأغنية غريبة ، يحاور فتاة لا وجود لها. أخيراً انتبه إليه ، وقال بفخر : هل رأيت فى حياتك صدراً تعجز يداك عن احتوائه ؟ .. لن تراه حتى بعد وفاتك .. أنا وجدته .

- ابتلعت الإهانة ، وفى اللحظة التالية ، حاول ، لكنى رفضت ، بينما كان أبى خارجاً من حجرته.

تذكر أن الليلة باردة لدرجة لا تطاق ،أشار من جديد إلى باب الحجرة:

- أخشى أن يخرج الآن .

جاءهما صوته الذابل مكفناً بالشيخوخة . فتحت الباب بحذر، وهو صعد السلم قفزاً ، ومن حجرته عاد إليها ببعض حبات الليمون، أعدته لأبيها ، ثم عادت تلتقط أنفاسها ، وتتصنع ابتسامة .

-ليتنى أستطيع أن أقدم له شيئاً .

ربتت على ظهره ، كادت تنحني ، تقبل رأسه ، وهى ذاهبة إلى حجرة المريض عائدة بالكوب الفارغ ، وعيناها تشعان بريقاً أخاذاً :

- كاد يسألنى عن مصدر الليمون !

قبل أن يسألها عن سر غرابة السؤال ، أجابت :

- لا أغادر البيت منذ يومين .

- أتمنى أن أطمئن عليه بنفسى .

لمحت الصدق فى عينيه . أخذته من يده ، وهى تضع إصبعها على شفتيها :

- انظر إليه من حيث لا يراك .

انشغلت بإعداد كوبين من الليمون ، لهما .. كان الرجل مستلقياً على ظهره . على سرير مرتب ونظيف ، إلى جواره أدوية . وهواء مشبع برائحة الموت ، تحسس جيبه . بضعة جنيهات لعلها تسهم فى منحه بعض الحياة . عندما استدار ، كانت فى مواجهته . على مقربة منهما كوبا الليمون .. نبض القلب ، وألق العينين ، وحيرة النفس أكبر من قدرته على ادعاء تجاهلها :

- ليتنى أستطيع أن أريحك .

أغمضت عينيها مطبقة على سرّ غامض :

- حتى هذه ؟

وأشارت إلى وجنتها ..

يا أيها الذى يستطيب ولا يستجيب لمن وهبت نفسها رغبة في غائب قد يعود .. ورغبة فى مقيم تخشى هروبه وشرود نظراته مستعيذا بمن فى القلب عرشه .. لماذا التردد فى موضع التدلّه والقرب لا الذل والرعب ممن تمنيت أن تمنحك نظرة لتسبح فى ملكوت عينيها مستظلاً بشجرة لم تكن للخلد يوماً ولكنك صاعداً هابطاً كنت تركل قلباً يهيم بمن تراقبك ولا ترى إلا طيفاً جسدته خيالاتك فتجرى إلى هابيل تحذره تحذر نفسك من بطش أخيه أخيك فيما كان أبوكم مشغولاً بقرض ظفره ومن خلفه حاولت زوجه ستر عورتها عن عيون القرود والأسود والفهود وعصافير الجنة الشاردة التي وسوست لأبيكم وهو راقد بأنكما تنويان وتختبئان بالحجرة المواجهة تعدان كوباً من الموت لمن يريد ولا يريد تذوق طعم المرارة والحموضة تتذوقان رحيق الحياة فقال ويحك يا أيها الذى استطاب واستجاب ولم يعد فى قلبه عرش إلا لذاته ولمحت فى عينيه سطور انكسار لا يجبره إلا موت جريح يعجز عن بلوغ جواد جامح حملك طائراً نحو ملمس الملبن الداعى فلبيت بادئاً بالوجه دلتا النيل غير منته.. بالنهدين ضفتيه وبينهما يجرى النهر شمالاً جنوباً كيفما شئت أينما جئته جاءك الذى يداعب طفولتك الأولى وأنت تجرى فى الحارة بين العيال متسخاً بالبراءة وهم يضحكون بهجة لكن ذاك العجوز تأبط حزناً عليك بكشفه عريك الذى سيكون فى حضرة الموت ذات مساء والفتاة تجذبك نحوك وأنت ترد نفسك عنك لأن النهر ينبع من تجويف تخشى الآن ارتياده ..

دون أن تتكلم،أشارت إلى وجنتها..حتى هذه ؟ من فرط الحيرة، اقترب من الشجرة . القطوف دانية ، أقرب إليه من كوب الليمون. وألذ منه مذاقاً.

للنار المقدسة طقوس ، لا يطفئها - حتى - اصطدامها بالكوبين ، وارتطامها بالأرض ، عين الماء دائماً صافية ،لا يرى فيها إلا وجهه ، فماذا لو غامر بالشرب منها، بتذوق طعمها ولو مرة .. مرة واحدة ؟

فى اللحظة التى تهيأ فيها للاقتراب ،ولمست يداه نعومة الثمرة الناضجة، شقت الصرخة العفية صدر الليل ، أصابته بالرعشة غير المقدسة ، من بين يديه تسربت إلى حجرة الأب ..

من فتحة الباب تحتضن النائم بعنف ، تهزه ونهتز معه وتهتز به . اختلطت نشوته الموءودة بالارتباك ، أحس بالدهشة والبلل، نظر إلى الأرض وهو لا يصدق ..

خرج ، لينتظر قليلاً ،على السلم ، استعداداً للمشاركة فى الزحام ، أمام باب الشقة ، مع جيران انتزعتهم أيدى الصرخات من أحضان النوم ..

سبتمبر ١٩٩٤

بورتريه للعجوز

فى طريقك إلى البيت . تتقاذفك مصابيح الشارع ، يمد أحدها أذرع نوره ، يأنس بك قليلاً ، ثم يسلمك للآخر . تعانق عيناك السماء . تتعثر فى نافذة حجرة السطوح ، وليمة لذيذة . لابد أنهما أعداها لك . وتركاها ونزلا إلى المقهى، يراقبانك عن بعد ، فى المرة الأولى ، انتظراك أمام الباب ، فيما وقفت مرتبكا .جذبتك من يدك . أحسست بالطراوة .وسرى فى أوصالك برود. همت المدرية بتعريتك، أمام نفسك ، وكنت شارداً. قالت فى يأس : تأخرت كثيراً، وكانت عيونهما ، فى الأركان الأربعة ، تتحداك ، رددت هامساً: كان يجب أن أفعل شيئاً ، سبقها إليك عبير نفاذ . وتراجعت قليلاً.متفاديا بطش الشلال.طوقتك ورأيت شفتيها فى لون الدم، تنهدت، وسألتك عن الحال ، وأنت تكاد تفتح الباب . ماذا كانا يفعلان قبل الآن ؟ لا شئ ، انتظرناك، ولما تأخرت،قالا إننى يجب ألا أعود كما أتيت .خرجت إليهما ، بكامل هيئتك . كتما ضحكة خبيثة ، وتأسفاً على خيبة أملهما فيك. قالا : قمنا بذلك ، نيابة عنك ، من الآن لا تطلب شيئاً ، حتى هذه لا تعجبك ، إنها أفضل من صادفنا، أنسيت أننا بعد منتصف الليل ، وليس معنا سيارة ، كم هى كريمة ، بموافقتها على الحضور . وكانت تتسلل ، باحثة لنفسها عن طريق ،بين سيقان الليل ، والحذاء تحت إبطها وألقت فى آذانكم بسؤال . موعدنا غدا . لم يرد أحد ، كان الصوت رقيقا . تمنيت أن تعود . ليتك لم ترها ، ما لمثل هذا الوجه خلق هذا الصوت . فى هذه المرة . وعداك بالتنازل ،بالانتظار فى المقهى ، على أن تترك لهما الحجرة بعد ذلك. هى الآن هناك ، تتلصص من ظلام الحجرة ، وأنت منجذب إليها ، تبتل قدماك

بالظلام ، تغوص فيه صاعداً . ويشدك صوت غليظ . يهبط السلم ، ملتمسا طريقا : بديعة . تتركيننى وحدى . ماذا أخرك . تمسك بيدك .تتحسس شعرك . ويدك العرقى . من؟. تقول إنك ساكن السطوح . وتهبط متعلقة بك ، إلى الشارع تميل إلى يدك .تلثمها . كلما أمكن لها ذلك . الدموع عانقت عرق يدك . من ؟ تركتنى وحدى . ضاقت بى ، وأغلقت الباب . من فضلك ، اذهب بى ، إلى هناك ، سأدلك على الطريق . قلت لى ما اسمك ؟ تجذبك إلى اليمين ، فى اتجاه ميدان العباسية. الحارة الخامسة. إلى اليسار . فى مواجهة مقلب الزبالة . الباب خشبى يتدلى منه حبل السقاطة . قلت لى ابن من أنت؟. لا بد أنك مجدى .اعذرنى يا ولدى . يبدو أننى أخرتك كثيرا، هل تسمع الآن قرآن الفجر ؟ . على ناصية الحارة الأولى ، يتألق المصباح . العجوز تشدك إلى الوراء . ترفع يدك ، تقبلها . دموعها تنبع فياضة ، تروى جداول وجه كان ريانا . تذوب الملامح، لا ترى إلا عينين مفتوحتين . تنظران إلى الأمام ، والطرحة تطوق الوجه الرطب ، فيستدير بدراً باهتاً. الحسناء هناك ، تراقبك من أعلى ، وهما بالمقهى ، وعداك بأن تكون الأول، اثبت لهما كفاءتك ، وإياك أن تتخاذل . أسرع قليلاً . الفتاة لا تحتمل هذا التأخير ، وحدها بالغرفة . كنت أسألك عن ماذا يا بنى ؟ آه . نسيت أيضا . تقول لها إن الفجر لن يأتى الليلة . لا بد أن تنصرف الفتاة ، قبل منتصف الليل . نعم ، كنت أسألك ، وتبكى. فى ضوء مصباح ناصية الحارة الثانية . تذوب هضبة ثدييها، وينساب جلبابها متهدلاً، تتعثر فيه، تتعلق بيدك، وجهها لا يزال يحمل بقايا جمال . هل تكون فتاة الليلة كفتاة الليلة الفائتة ، وماذا قالا لها عنك ؟ لولا هذه العجوز ! . لا تتعجل يا ولدى، إننى متعبة ، جائع أنت ؟ .. اقتربت الحارة . أليس كذلك

؟ لم تقل لى ما اسمك . ارفع صوتك . تستدير . بنظرة خاطفة . تحصى الحارات ، والمصابيح . إلى اليمين ، مقلب الزبالة ، كلب يعربد بكيس . يداعبه بأنيابه ومخالبه ، ويحتضنه . يتركه، ويعود إليه . أظنها هذه الحارة يا ولدي . توقف قليلا . الكلب يكف عن لعبته يتطلع نحوكما، يدعوكما إلى السير. جانب آخر من الظلام يتطوح ، تهتز كتلة الليل ، وتتأوه . أنفاس لزجة ، أجزاء بهية من اللحم الحى ترفع جفن الليل ، وتغمضه . الصمت ستار . لا يمزقه إلا زفرات العجوز . الكلب يعبث بالقميص والسروال ، يخطف بعض الثياب . مبتعداً بالغنيمة . يتجسد الظلام والصمت، ينبت له رأس وساقان وذراعان يجدف بهما جاريا وراء الكلب. يتطوح الشئ أمامه . مرتطماً بفخديه . كمصباح خافت .

يتكور جزء آخر من صمت الظلام ، تسدل شعرها .فينطفئ الضوء الواهن . العجوز تدفعك . لا بد أننا وصلنا . تدس حافظة نقود . تشكر الكلب الذى اكتفى بالثياب . بخفة ترفعها، تشير إلى القمر المتوارى خلف سواد الشعر . ألم نصل بعد ياولدى ؟. ما اسمك ؟ كدنا نقترب من ميدان العباسية . تنحنى الأقدام . الباب الخشبى . يهبط منه ذيل السقاطة . أستطيع الآن أن أصل وحدى . أشكرك يا... لم تقل لى ما اسمك . هو هذا الباب . يا بديعة ، يا أولاد الحرام ، افتحوا . الفتاة لا تحتمل أكثرمن ذلك ، عد إليها واكتف بحافظة النقود، ودع العجوز ، كما طلبتْ . يفتح الباب . النور كله يغمر الحارة .تقول السيدة للعجوز: أمى ؟! . تصرخ . يفتح صدرها ، تستر عريها الكامل ، باحتضان العجوز .. أنت ! . جيبك يمتص النقود يخرج القمر من برج محاقه . يربت على كتفيك .

مارس ١٩٩٢

بورتريه لأرملة السجين

من ثقوب نافذة مظلمة ، أطلت قصاصة من الورق على يوم حار...

دون أن ينتبه فاجأه صوت جريح .. لم يكمل تجفيف عرقه . نظر يميناً ...كان كورنيش النيل ممتداً ، وتحت إبطه النهر . بلا تفكير مدّ يده . تناول القصاصة المبتلة . أتاه الصوت واهناً متوسلاً :

قل لها .. أرجوك قل لها ....

انطلقت السيارة المصفحة جنوباً، دون أن يرى وجه صاحب القصاصة ، أو يسمع رسالته ، أو حتى يعرف اسمه .. ابتسم فى أسى :

أية مفاجأة يخبئها لك هذا اليوم ؟

رقم واحد من الأرقام التهمه العرق ، ولا أسماء . فلتجرب الأرقام المكتوبة ، مع استبدال أرقام أخرى بالرقم المتآكل .. هل كان يعرفك ، وناداك بمجرد أن لمحك؟ .. ربما تزاملتما معاً فى السجن الحربى . وإلا لماذا لم يناد أحداً غيرك ، ويكلفه بهذه المهمة ؟ .. لعله ... لا. من المؤكد أنه .. بدليل عدم اهتمامه بكتابة اسم زوجته، فأنت تعرفها، منذ كانت تزوركما، وتلمح فى عينيها انكساراً، كانت زيارتها نافذة وحيدة ترى من خلالها الدنيا، بعد أن تخلى عنك الأهل، تجنباً للمتاعب ، لتخرج إلى الحياة بنصف بصر . بنصف أمل، بلا زوجة ، ولا ولد . هل ناداك باسمك وهو يعطيك القصاصة ؟

على الطرف الآخر ، جاءه الصوت خالياً من البريق . قال لها :

- أنا حسن .

لم يأته رد يدل على سابق معرفة لهـا به .. كاد يضع السماعة . لا يعرف بالتحديد ما إذا كانت زوجة السجين ، أو أمه ، أو ابنته ..

- أنا حسن السجين ..

هددته بعصبية بإغلاق الخط . اعتذر لها، واستمهلها.

- معى رسالة لك .

أخيراً شـعر بالارتياح . التقط أنفـاسه ، هاهى تسأله عن زوجـها ، تترك السماعة قليلاً ، تطمئن أمه . كتب العنوان . ثم طوى الورقة .

توجه إلى أقـرب مقهى للعنوان . انتظاراً للموعـد . بحياد طلب شـيشة وشايا . وراح يـدخن بارتياح وثقـة . نظر حوله . بنفـسه حضـر رجل بدين صنعت شفتاه ابـتسامة . رحب به ، وأمر له بفنجان قهـوة . ليس سهلاً على صاحب المقـهى أن يطمئن إليه . لم يره من قبل .مـلامحه الجادة ، ومـلابسه المهملة تدعو للحيرة . نادى ماسح الأحذية ، فأتاه محيياً . مارس عمله دون أن يعيره الجالس أى انتباه . تأمل العنوان من جديد . سأل جاراً له ليتأكد.

أخرج ورقة أخرى ، وكتب :

زوجتى العزيزة ،

أرجو أن تكونى بخير ، وأن تطمـئنى علىّ . عندما تتاح الظروف سوف أكتب رسالة أطول . عن ماذا ؟ .. والله لا أعرف . لكنى سأكتبها ،

توقف عن الكتابـة . سـحب نفسـاً عصبيـاً . على البعـد ابتسـم له الرجل البدين ، لـم يدعـه يعطى الحسـاب لماسح الأحذية ." حضـرتك .. أول مرة تشـرفنا " . اضطر للانصـراف مصـحوباً بهـيبـة .. لكنك نسيت أن تكتب

اسـمك فى الرسـالة . ولم تكتب اسم الزوجـة أو زوجـهـا .. قل لهـا إنك خارج لتّوك من هناك .وكـان معك قبل سـاعات . لن تتعجب من جـسمك النحيل ، أو ذقنك . هل تحكى لهـا عن نصف بصرك المفقـود هناك ؟ . بعد أن تتركهـا لن تجد غيرها تتحـدث إليه .حسناً فعل السـجين ، منحك فرصة فريدة ، بعد فشلك فى العثور عـلى زوجتك . لـم تجد لك مأوى ، إلا مقهى فى حى قديم . تقـضى فيه سـاعات آخر الليل . قـبل الذهاب إلى صاحب المطبـعـة لتـصحيح بضع مـلازم من كـتـاب كريه .. ضـاق عـامل المقـهى بحكاياتك ، فهل تسمعك هذه السيدة ؟ .

فتحت الـباب سيدة تشى ملامـحها بحداثة الزواج . قـبل أن تنطق قدم لها نفســه :" حسن" . صافحتـه بحرارة من يسغيث به. دعـته للدخول . فى صالة مـتواضعة جلس . عـن يمينه ممر ضيق . تجنب البداية . كـانت نظراتها تتوسل إليه أن يحدثها عن الغائب ، لكن خشى أن تفلت نقطة التحرك وآثر الانتظار . لا يعرف بالـضبط من هذه السيـدة ؟ استرق نظرات سـريعة إلى الجدران ، لعله يعـثر على صـورة تربط الجالسة أمـامه ، بسجين لا يعـرفه.. تعرت الجـدران إلا من صورة لشاب ممتلئ بالحيـوية ، توقف عندها انتظاراً لتعليقها فقالت :

- فهمى أوحشك ؟

بكـت ، رغم تظاهرها بالتماسك . حيرة حقيـقية أوقعتك فيها .. هاهى أعفتك من إلقاء أسئلة تفضح جهلك بالسجين الغائب ، لتقل شيئاً :

- ما كنت أتوقع أن يؤدى حضورى لكل هذا الحزن .

صمتت السيدة . اكتفت بالتوقف عن البكاء ، وإن خانتها الدموع .. بعدما أخذوه ، فتشوا البيت . لم يتركوا شيئاً له قيمة حتى الصور .. صور زفافنا نزعتها ووضعتها فى الدولاب . ألم يكتب لى رسالة ؟

هل هى محاولة للتأكد منك ؟ .. أما زالت تخشاك ؟ . ناولها الرسالة ، ولا تتلعثم . لا.لا. اعترف لها بالرسالة التليفونية التى لم تسمعها ، حينما انطلقت السيارة ، وساحت الكلمات فى حر الظهيرة . لا . لا. فما الداعى لا تصالك بها من البداية ؟ . ولماذا حضرت ؟ . أخبرتها بالتليفون أنك حسن السجين ..ألست سجيناً قديماً ؟حدثها عن السجن لعلها تزداد تحملاً . اقطع عليها أسئلتها الصامتة عن جفاف عودك . قل لها إن السجان يأخذ من أجسامكم ، ويضيف إلى جسمه . وليته يستطيع الاستفادة من أرواحكم .. هذا النحول خفف عنك وطأة الإحساس بالعذاب ،وهم يعلقونك من ساق واحدة ، ورأسك إلى أسفل ، مزروع وعاجز عن الاتكاء بيديك على الأرض ،لا تقوى على منع اندفاع الدم إلى رأسك، ولا تستريح بالموت، تصارع النوم، تبعد أمواجه عن عينيك ، خوفا من انفجار الدم فيهما . حتى صرخاتك كانت تنتهى بدم متجلط ، تختتم بنزفة نوبة التأديب . ثم تحاول الضغط على عينيك ،تحمى ما تبقى من النور، قبل تسرب بقايا ضوء واهن.

قرأت الرسالة فى لمح البصر ، شكرته بنظرة ، ولم تتكلم ، قرأتها مرة أخرى بتأن ، وهى تحرك شفتيها ، وتكاد تحتضن حروفها . أفاقت من ذكرياتها الدافئة لأيام الزواج الأولى . شعر بالخجل :

- لولا خروجى المفاجئ لكتب رسالة طويلة .

- خرجت اليوم ؟

- منذ أيام ، أعتذر عن تأخرى فى الاتصال . كنت متعباً .. ابحث عن زوجتى .

- لعلها بخير .

خرجت العبارة مبتلة بالدموع ، تائهة فى شرودها، فلم ينتبه إليها.

- قبل خروجى كان منظرى مضحكاً . أصر السجان على إذلالى .. حلق النصف الأيمن من شاربى ، والنصف الأيسر من ذقنى .. كان يتسلى بانتزاعه شعرة شعرة . وكلما لاحظ سخريتى الصامتة منه، ازداد ضيقه ، و... ابتسمت السيدة . كتمت ضحكة من الأعماق ، استأذنت لتعود بالشاى . هل كانت تقرأ أسئلته المترددة عما إذا كانت تعيش بمفردها ؟

- من زمان لم يزرنا أحد ، حتى أصدقاء زوجى ، وأنا لا أهل لى . ذهب فهمى ، وترك لى التليفون ، وأمه المريضة .

صمتت فجأة ، وقالت بلهفة :

- لعلها استيقظت .

ذهبت لتطمئن على السيدة ، ثم جاءتا معاً . تسبق العجوز عصا. رحبت به فى كلمات سريعة متآكلة الأطراف . انحنت تقبل يده ، أسرع بسحبها وهى تطبطب عليه ، وتدعوه إلى الجلوس . رنت إليه طويلاً . نقلت عينيها بينه وبين الصورة المعلقة ذات النظرة الواثقة .

- حمد لله على السلامة ، فهمى بخير ؟

- عن قريب سيخرج يا أمى .

- من يومه وهو شقى ، شيطان ، تعرف ؟ .. أخوه كان أعقل منه . مات فى الحرب من زمان ... وجلال الله أنا قلت لهم خذوا عمرى واسمحوا لى أشوفه قالوا إنهم دفنوه مع الشهدا وعرفت إنه تاه فى سينا..

لم تنتبه لدمعة مفاجئة ، ابتلت بها شفتاها ، مسحتها بتلقائية ، وسألته : يا ترى أعطاك رسالة ؟

أحرجته أمام نفسه ، وأمام زوجة ابنها .. استدرك قائلاً :

فهمى يرجوك أن تسامحيه على شيطنته ، لضيق الوقت لم يكتب رسالة طويلة ، واكتفى بإعطائى رقم التليفون .

وكانت السيدة الصغيرة على وشك إخراج الخطاب ، لتقرأه العجوز، لكنها أعادته إلى صدرها .

- من يوم غيابه مازارنا مخلوق . وجلال الله أنا مخنوقة ، نفسى أزوره.

تشنجت العجوز ، ذهب عنها الوقار . شدت خصلات شعرها الكتّانى الناعم ، وتوترت عضلات وجهها . قامت السيدة الصغيرة ، والعجوز تصارع الفراغ بيديها وأسنانها ، بإشفاق عليهما معاً ، صبت الصغيرة فى فم العجوز جرعة ماء وبعض الأقراص، ثم هدأت العجوز ، بدا عليها الخجل . سألت عن السيدة الصغيرة،قال لها إنها ذهبت لتشترى دواء.طلبت ماء، وأشارت إلى المطبخ . أسند رأسها إلى يد وسقاها الماء بالأخرى ، عندما بدأ يسحب يده ، تشبثت بها .

- لا تتضايق يا ولدى .

ابتسم مجاملة لها ، فأزال عنها الحرج .. متى رأيت هذه الملامح ؟ ..

العجوز تؤكد أنها لم تزر السجن ، فأين رأيتها ؟

- فهمي هو السبب ، لأنه غشيم ، وأصحابه ما فيهم رجل واحد يسأل عنا ، ولولا معاش الشهيد لمتنا من الجوع .. وامرأته - الشهادة لله - ما قصرت فى حقى ، حتي أنا مكسوفة منها .

دخلت الصغيرة بهدوء ، والعجوز لا تزال تستند إلى ذراع الشاب، وراحت فى النوم، وعلى طرف لسانها كلمة لم تقلها. شكرته على جميله.

- قبل أن تزور فهمى أخبرنى لأكتب له رسالة.

انتظر أن تقول له " لآتى معك " .. منذ زمن لم يمش فى الشارع فى صحبة سيدة ، ضاعت منه زوجته .

- ربما بعد يومين .أخشى ألا أستطيع الحضور، لكن سوف أطمئنه .

- يشغلك البحث عن زوجتك ؟

- تركتها قبل الولادة بشهور ، ولم أعثر لهاعلى أثر حتى الآن .

وضع فى يدها بضعة جنيهات ، وهى ترفض ، أقنعها بأن العجوز تحتاج علاجاً ، ابتلعت أسفها فى صمت .

إلى الشارع خرج ، كان الظلام قد هبط ، كاسيا الشوارع والبيوت والمقهى .. البدين يترقب عودته ، دعاه لتناول أى شئ . اعتذر باعتزاز، و إحساس بالتعالى. ألم يخطر ببالك أن تنبألهما عن تهمة الزوج السجين؟ وجد الفرصة ساخنة للسخرية من نفسه .. وهل كانت لك تهمة حينما استضافوك ؟ ... ما أسهل أن تمنح حريتك الكاملة فى اختيار التهمة .. ولك الويل إذا قصرت فى استخدام هذا الحق .

إلى الحى القديم عاد .. سأل عن نفسه .. عن شاب اسمه حسن ، غيّبته السجون، و كانت له زوجة على وشك الولادة . ما زال يحتفظ بصورتها، كانت تعيش فى هذا البيت،قبل هدمه ، وبناء هذه العمارة..

غريباً ذهب ، وغريباً عاد ، يتجول فى الأحياء الفقيرة . حاملاً صورتها ، على أمل أن يعثر على وجهها فى الزحام .. مثل هذه الزوجة لا يعيش فى غير هذه الأحياء .

كل مساء يشعر بالإنهاك ، يعود إلى عامل المقهى حاملاً ملازم من كتاب كريه ، لإنهاء تصحيحها .. قال له الولد :

– لا تستبعد أن تكون الآن خادمة بحى راق .

عرفت قدماه الطريق إلى الشوارع النظيفة الظليلة ، فيها شعر بضآلته، واختناقه فى شوارع تخلو من الحياة.قلمايعثر على إنسان ،وعن ماذا يسأله؟ .. عن خادمة اسمها فردوس ؟... لعلها تبرأت من اسمها وأصبحت سوسو .. أو دوسا ! .

على البعد ، توقفت سيارة يقودها رجل ممتلئ ، إلى جواره سيدة أنيقة، ذات ملامح شعبية ، جذابة كانت وغريبة فى ملابسها .. أخيراً عثر عليها .. قرر ألا يناديها ، ليحتفظ لها بهذه المفاجأة ، أزت عجلات السيارة . جرى منادياً ، حتى اختفت .

فى الموعد نفسه ظل ينتظر ، والسيارة لا تمر .

– تعرف الهانم ؟

قالها صاحب كشك خشبى، وهو يتبادل حواراً معه، لم يرد الشاب ، وتعلقت عيناه بمن تتعلق بذراع ذلك الرجل البدين ، أعطاه الحساب،

واجهـهه صمت مـدخل العمارة ، توقف المـصعد فـوقه بدورين ، ومنه إلى باب احـدى الشقق تحـركت أقدام بإيقـاع بطئ غيـر منتظم . قفـز الدورين صاعداً ، طرق باب أبعد شقة ، خرج شاب بملابس داخلية، أكمل ارتداءها ،وهو يواجه الشاب مرتبكا ، سأله عن فـردوس الخادمة، نظر إليه في تبرم ، ولـم يرد ، همّ بإغلاق الباب ، أعاد حسن سؤاله :

- فردوس الخادمة .. امرأتى ، دخلت هنا ..

ليس لديه وقت لـلرد ، أغلق باب الأمل فى وجـه السـائل ، فى تثـاقل هبط السلم .. على الدرجـة الأخـيرة اسـتراح . فكـر فى كتـابة خطاب من فهـمى إلى زوجتـه ووالدته . تجنب الذهاب عن طريق المقهـى . كان الوقت متأخراً ، والعجوز تعانى من احدى النوبات المفاجئة ، والسيدة الصغيرة شبه عارية .حمل العجوز إلى السرير. ثم عادت الصغيرة وقد ارتدت ملابسها ، وغسلت دموعها . أسند رأس العجوز إلى يد ، وناولها الدواء بالأخرى .

- لا بد أن تشفى قبل خروج فهمى .. أبلغته أنك بخير .. وأرسل معى هذه الرسالة .

كانت العجوز تستمع بنصف تركيز .

- انتظر يا ولدى ، دع يدك لى قليلاً، إنها تريحنى.. اسحبها عندما أنام ، دائماً أتعبك فتحملنى .

استكان جسد العـجوز ، وبالنوم هدأ لسانها ، بينما غـابت الصغيرة مع رسالة زوجـها ، قرأتـها أكثـر من مرة . فى الأولى بكت ، ثم ابتـسمت فى رضا ، امـتنت لصـديق الزوج السجين ، وبدأت تكتب رسـالة ، سألتـه عن زوجته ، قال وهو يسحب ذراعه :

- بحثت عنها أسبوعاً كاملاً .. وكلما لاح لى أمل ، تبخر مع دخان سيارة شاهدتها فيها .

تناول كوب ماء، شربه دفعه واحدة .

- من الفجر لم أتناول شيئاً ، شاهدتها على البعد ، وكدت أتعرض للهلاك .

ضحك من قلبه ،لم تعد تملك شيئاً أهم مما فقدت ، ضحكت هى معه ، بلا مجاملة ، تناول عشاء خفيفاً . أحسّ بعده برغبة شديدة فى النوم ، تحامل على نفسه ، ووقف أمام المرآة ، تحسس وجهه بعد انتهائه من حلاقة ذقنه ، وفي زاوية المرآة كانت تنظر إليه ، .

فردوس ؟ ..

ولم لا ؟ ..

لكنك لم تسألها عن اسمها .. وماذا تعنى الأسماء ؟ . فردوس ؟ .. غيرها ؟ .. لتكن ، لولا هذه العجوز !

قامت من نومها فزعة .فى الممر ، كانت الصغيرة تطمئن على نفسها فى مرآة صغيرة ، بعد خروجها من حجرة نومها . نظرت إليه، و شفتاها نصف مفتوحتين ، ولم تقل له شيئاً . أسرع إلى العجوز . كالعادة منحها ذراعه ، فى ركن الصالة تنتظره الصغيرة . عروساً كانت . خجولاً وجميلة .

من رأس العجوز سرت إلى ذراعه برودة . قال بحماس المحبط :

- أدركينى بطبيب .. العجوز تحتضر .

يونيو ١٩٩٤

بورتريـــه للآنســـة

فى الفجر، نهض البحر متكاسلاً ،

نفضت عن عينيها بقايا نعاس ، بدا البحر من النافذة بلا نهاية . احتضنت التليفون همست " كنت أريد أن أراك " ، وضعت السماعة ، ابتسمت لصورتها فى المرآة " صباح الخير يا أنا " مرة أخرى ، استلقت على السرير ، تعرت إلا من شعرها ، راحت تساويه ، وتعابثه ، وتمشطه بأصابعها الدقيقة . احتضنت نفسها بقوة ، أفاقت على الرنين . قالت لخطيبها " كنت أريد أن أراك " . أهدته قبلة وابتسمت للتليفون ، ولصورتها فى المرآة .

* * *

كان العامل – قد انتهى من تنظيف المكاتب ،استقبل تحية الصباح ممتناً . سألته بدلال : ألم تجهز الشاى يا رجل ؟ ضبطت نفسها متلبسة بالتعطش إلى سماع صوت "حسام ". أخبرها أمس أنه ربما يتأخر اليوم . ألحت عليه أن تذهب معه لإنهاء المهمة . كان أكثر منها حذراً . طمأنته :

– لا تخف ، خطيبى خارج المدينة .

– دائماً أتصور أنه يريد قتلى .

– لا تحمل الأمور أكثر مما تحتمل .

– اراك واثقة أكثر من اللازم !

– هو يعلم أنك زميل .. وصديق .

نظر صامتاً ، سكبت عيناه مزيداً من الأسئلة . ردت :

- .. وربما أكثر من ذلك .

أزاحت كوب الشاى الفارغ ، طلبت آخر ، ثم أزاحته بعيداً ، تجاه مكتب " وديع " . اكتست ابتسامته ذبولاً فشل فى إخفائه ، حرث الأوراق بعينيه قائلاً فى لهجة ساخرة :

- صباح اللوم يا آنسة .

- تلومنى أم تلوم نفسك .

- ألوم نفسى بالطبع .

- لمجرد أنك أمسكت يدى أمس ، ونحن نعبر الطريق ؟ !

- تخيلت أنه يراقبنا .

- ذكرتنى .. هو خارج المدينة .. اتصلت به صباحاً .

- ثم ماذا ؟

- اطمئن .. أرضيته بعبارة يحبها " كنت أريد أن أراك "

- ثم ماذا ؟

- أهديته قبلة .. كنت أتصدك بها .

- ثم ماذا ؟

- لماذا تصر على حرمانى من استقبال يومى بسماع صوتك ؟

لملم كل إرادته مستجيباً، فى زحام الشارع عجز عن الكلام ، بلا اتفاق ، منحها يده ، و تذكر أنه لم يشرب الشاى . دعاها إلى كوب بأقرب مقهى ، تسللت إلى ثغرها ابتسامة، وتورد الوجه ذو الغمازتين :

- لا أتحمل الجلوس بين من لا أعرفهم ،

- كأنك تعرفيننى ؟

- من أول لحظة ، تأكدت أنك من أبحث عنه ،

- وأنا أيضا ، ولكن ..

- ولكن ..لماذا لم تكن صاحب المبادرة .

- خشيت رد الفعل .. ولاحظت تعلقك بحسام .

- حسام ؟! .. أرجوك .. لا تفسد علىّ سعادتى بك اليوم .

- تخيلت أنه مصدر سعادتك .

- هو سدّ يحول بيننا .

تشابكت الأصابع ، سرى دبيب الدفء متدفقاً نحو القلب ، وانصهر الخجل :

- لكنه يحبنى .. ويحبك .

تصنعت الضيق ، وسحبت يدها من يده ، فأرضاها مستدركاً :

- فيما يبدو .

- هو يحب نفسه ، وصفك أمس بأنك بلا طموح . وتشاجرت معه من أجلك .

رنا إليها بإشفاق . رمشت عيناها . بدتا أكثر بريقاً . أشاحت بوجهها عنه ، بخبرة من تمسحه ، وتجرده إلا من نفسه ، وتحتويه ، تستصرخ طموحه ورغبته فى اختبار رجولته ، وينفجر البركان ، وفى طريقه يلتهم كل شئ .

عبرا الميدان الصغير ، واقتربا من البحر ، اعتصرت أصابعه . ذكرته بأنه عرض عليها الجلوس بأقرب مقهى. فى طريق العودة، وفى مواجهة المقهى ، اقترحت أن يصنع لها الشاى بنفسه. افترشت حياءها ، إلى أن عاد بكوبين:

- كأننى أحلم .

- مجنونة .. ألست كذلك ؟

بهدوء زحف الصمت . تحت الأقدام ، تناثرت قطع الملابس ، و بعفوية تنقصها الخبرة ، ضمها إليه ، انتهزت دفء اللحظة ، و اقتربت منه . خرج صوتها كسولاً ، ولزجاً متآكل الأطراف " هكذا "، و امتزجا معاً غائبين عما حولهما، ثم تبادلا ابتسامة أكثر دفئاً . لم تتوقع الآنسة أن تنبع خيوط اللهب من جبل الثلج . كادت تسأله عن قدرته على تحمل نتائج المفاجأة ، وفى اللحظة المناسبة، اكتفت بابتسامة أخرى أكثر ثقة :

- أنتِ أسطورة .

- وأنت كذلك ، كنت أحسبك نصف ملاك .

- ثم ماذا ؟

- اكتشفت أنك حبيب كامل .

همست وهى تودعه : " لا تسئ بى الظن ".

* * *

استقبل العامل تحية الصباح حائراً،داعبته :ألم تجهز الشاى أيها العجوز؟ هزّ رأسه ، ابتسم ابتسامة غامضة :" مجاناً كالأمس يا أستاذة ؟ " أصابها

الارتباك ، فالأوراق على مكتبها - ومكتب وديع - كما تركاها أمس ، هل لاحظ أحد الزملاء شيئاً ؟ أو سأل عن أحدهما المدير ؟ أزاحت الكوب الفارغ بعيداً عن مكتب " وديع " لفحتها أنفاسها الساخنة . للشاى فى بيت وديع طعم آخر، و غابت عمن حولها قليلاً ، ثم انتبهت على صوت العامل العجوز . تنهدت بضيق ، تجسدت زفراتها فى" حسام ". حتى انصرافها أمس ، لم يكن قد عاد . مجرد إحساسها بوجوده يكفيها . بابتعاده عنها يختل توزانها ، وإن حاولت التحكم فى تصرفاتها ، يوم كامل لم تره فيه ، واليوم تأخر أيضا . " وديع " بدأ يمارس عمله اليومى منذ الصباح ، غارقاً فى خجله ، غير قادر على النظر إليها .

بلا استئذان ، تركت الملفات ، حملت حقيبتها ولهفتها . أمام المدخل قابلته ، تألقت عيناها احتضنته بنظراتها المتوهجة ، وقلبها المضطرب ، سألته عن سبب تأخره عن الحضور أمس ، أجاب بانه حضر متأخراً ، ولم يجدها. سلط عليها أشعة عينيه الحادتين، لو ظل لحظة أخرى،لانهارت ، معترفة له بكل التفاصيل ، ساعدتها النظارة على أن تدعى التماسك ، أخيراً منّ عليها بابتسامة غامضة . همت بتجنبها ، أو الاستجابة لها خوفاً من سوء التفسير طمأنها متودداً " من اين يبدأ تألق عينيك ؟ "، وخلعت النظارة .

من الداخل جاء صوت العامل مرحباً بالأستاذ " حسام " ، فتذكرت أنها نسيت يدها فى يده. أنهى بعض الإجراءات ، ولحق بها فى الميدان ، تأملها على البعد ، بدت أقرب إلى طفلة ، احتواها بعينيه ، و تشاغل عنها بالأمواج المتصارعة ، سألته :

- لماذا تتجاهلنى ؟

- أنا؟

- كلما حاولت إعفاء نفسى من التفكير فيك ، فشلت .

- ألم أعترف لك بعجزى عن مساعدتك .

- هذا قدرى .. لكنك تتعمد تعذيبى بغيابك المتكرر .

- عملى لا يخفى عليك .

- أتنسى أننى عرضت عليك أن أكون معك أمس ؟

-............ !

- أنت أكثر من صديق

- أحياناً أتوقع أنك تخافيننى .

- أنا دائماً فى حاجة إلى وجودك ، والحديث معك ، حتى فى وجود خطيبى يطاردنى هذا الإحساس ، إلا أنك تتعمد تعذيبى بابتعادك عنى.

أسكتها خيطان من دموع ، بلون الخدين الملتهبين . قرأ فى عينيها حروف التوسل ، ووضع يده على كتفها، تسربت شحنات الانفعال واستجابت مستكينة ، و اقتربت منه . ابتلع أسفه على ذنب يشعر ببراءته منه " كأننى أرى عينيك لأول مرة..كل هذه الدموع . ليتنى أستطيع تجفيفها .. " صمت قليلاً ، وأضاف :" بشفتى " . فى جرأة - لم تفلح الآنسة فى نزع ريشها - أوضحت له أن الفرصة سانحة .. وعادا افترشت حياءها ، وأحاطت نفسها به ، أحضر الشاى ، رشفة واحدة صهرت الغلالة الشفافة ، ألح إليها أنه لا يشربه إلا ساخنا ، ومال على خديها يجفف آثار الدموع

" أعطينى فرصة أطول لأنفذ لك وعدى " ضحكت من أعماقها :

- لولم أقترب منك ، ما عرفت أن فيك مرحاً .

- أنا ؟

- ليتك تتخلى عن قسوتك .

تطاير مسحوق صوتها ناعماً . أحاطه بحذر طارئ . بين يديه احتوى وجهها :

- مازلت طفلة منذ رأيتك أول مرة .

- وأنا ظننتك نصف إله !

ساعدته فى انتزاع نفسها من قشور الثياب ، تكلفت التردد . جذبها مترفقاً . اقتربت بحذر ، فقال بثقة " هكذا " . فى عينيها كان البحر هادراً . نزع ثيابه ، ألقاها بلا ترتيب على الشاطئ ، و غاص بها إلى أعماق التوحد أوشكت أن تغرق منه . حملها إلى أعلى مستعرضاً مهاراته الخاصة ، و من الراديو انساب صوت شادية " عليه صبر وطولة بال وعليك قوة تهدّ جبال " أظهرت براعة فى السباحة والغوص ، وعندما استنفداقوتهما رجعا إلى الشاطئ .جلسا يلتقطان الأنفاس، والمياه تغمر السيقان المستدفئة بالرمال المبتلة . قبلها فى فمها . أشارت إلى الراديو :

- سمعت الأغنية ؟

- هز رأسه بالإيجاب .

- لا أحب سماعها إلا معك .

عقد الخوف لسانها من أن تقول له " أنت بالذات " سألها :

- مازلت تظنيننى نصف إله ؟

- جلجلت ضحكتها فى المكان :

- أنت نصف شيطان !

.بلغت المنطقة الرخوة داخله ، دعاها مرة أخرى إلى البحر ، أجابت بإيماءة ، وانطلقا .

همست وهى تودعه : لا تسئ بى الظن .

مارس ١٩٩٤

القسم الثاني



(١)

تكورت على أعوامها المائة ، ونامت . لكنها لم تسترح .

قبل الفجر . شدتنى بعصاها العوجاء . من قدمى ، وزامت .

كنت نائماً بجوارها، تلفحنى أنفاسها الساخنة ،وعينى نصف مفتوحة.

رفعت قُلة الماء ، بيدين مرتعشتين ، ثم تجشأت حزنها ، وطلبت شايا

سألتنى فجأة :

- قرآن الفجر بدأ ؟

- آه

تحاملت على بقايا الصحة ، واتكأت على عصاها ، وارتمى ظلها قصيراً وباهتا ، وهى تتجه إلى الحمام .

صنعت لنفسى كوباً ، وكانت قد انتهت من صلاة الفجر .

حمدت الله على الصحة ، والنعمة ، وناولتنى الكوب الفارغ ، هزت رأسها ، وجذبتنى برفق ، إلى صدرها الناشف ، وقبلتنى بين عينى .

- أعمامك قاموا من النوم .

-لا.

اهتزت يداها ، وارتعشت الذاكرة ..

تسربت ، بخفة ، من بين أعوامها المائة ، فتكورت ، ونامت ، لكن لسانها لم يسترح ..

دائما تتذكر جدى ، تقول إنه يمد إليها يديه ، كل ليلة ، وهى لا تستجيب. تسيح ملامح الوجه وتتآكل الخطوط التى تفيض منها الدموع، كلما وجدت نفسها وحيدة ، وهى دائما وحيدة .

(٢)

تعلقت بخيوط الشمس الوليدة . وسرت وراء أعمامى .

عمى الكبير نزع جلبابه ، ووضعه على المقبرة المجاورة ، فأنزله عمى الصغير ، وحشره بين أذرع شجيرة الصبار . كلهم شمروا، وتدلدلت سراويلهم التى بللها العرق ، وماء المعجنة.

حارس المقابر خرج من بيته جاهزا . تتدلى من سرواله الأبيض تكة من صوف الغنم .انزلق إلى جوف المقبرة ،ولملم جمجمتين وبعض العظام ، وقطعة من كفن بال ، وقال " كل من عليها فان ". خبأ بقايا الراحلين ، فى جسد الرمل . وانغرزت ساقه ، همس كأنه يحدث نفسه :

- هو الذئب الأعور .

كان الأعمام مشغولين بتجهيز الشغل ، وسألته :

- نعم يا عم ؟

تجاهلنى ، وألقم الفم المفتوح سرسوبا من الرمل الناعم ، ثم كبسه بقدميه جيداً .

- الآن ، نطمئن على الحاجة .. لو ماتت !

وأخذ يدور حول نفسه بلا خوف ، يفتش عن عظام، وردد فى نفسه:

- وماذا يأكل منها الذئب .. يا حسرة !

(٣)

زوجة عمى أحضرت الغداء . نظرت إلى المقابر الجيدة ، وقد ، وحملت ملامح الموتى ، وروائحهم . قالت وهى تضع يدها على رأسى ، عابثة بشعرى :

- يا مصيبتى عليك يا أمى .

عمى صرخ فى وجهها ، ونظر إليها غاضبا ، وقال اخرسى يا ولية فخرست ، وضع البناء المسطرين على مقبرة مجاورة ، وأنزله عمى ، ووضعته فى حضن الصبارة ، وانتظر حتى يختمر التراب .

سحبت البشكير ، وكومته على رأسها ، وأخرجت العيش، والبطاطس المحمرة ، والبصل ، والأرز المعمر ، والمخلل ، ودست فى يد عمى نصف رغيف ملفوفاً ، وسألها :

- أيه الأخبار ؟

نظرت فى لهفة :

- ربنا يستر .

تضم لقمة ، سدت أشداقه، عطس بشدة، فانتفض ورك الفرخة من يده،خارجاً من العيش ، وغافلتنا زوجته ، وبهدوء سحبته .

(٤)

فى غبشة الصبح . كانت الشوارع تتثاءب .

خرج الأعمام وزوجاتهم . خلطوا التراب بالتبن واختمرت المعجنة .

نفخت زوجة عمي الصغير خرطوما من البخار الدافئ ، وامتصت ثدييها . ورمتني بنظرة غل .. وكنت أغافلها ، وهي تشب على أطراف قدميها، كي تطول الجدار ، وأترك عيني، تتعلقان بضفيرتين تداعبان ردفيها ، ثم تهبطان من الأمام ، وتستقران على صدرها النافر .

كانت احداهن تحمل قصعة الطين ، تترجرج منها عجيزتها الريانة وقالت :

- عيل يا سيدة ، وعقله على قده .

مصمصت شفتيها :

- عيل !... صحيح .

(٥)

كنا قد بدأنا نمتص ظلالنا ،وتعلقت عيني بمن تقف أمامي ، في جلال، يستلقي ظلها على الأرض ، طولا وعرضا ، تتخطى نظراتها أعمامي وزوجاتهم ، وشواهد القبور ، وتنساب من رأسها ضفيرتان تتسللان من تحت الطرحة ، وتنامان على صدرها الممتلئ ، وتتلألأ منهما القطرات ، وعيناها الصافيتان ، في الكحل ، بلون الطين .

هزت رأسها ، و العيون تصافح العيون، في صمت . وقالت :

- الله ! .. الله !

داعب الصوت المألوف آذاننا ، وانتظرنا المزيد .

قالت ، وهى تتطلع إلى حيث تغرب الشمس :

- أقوم من النوم ، ولا أجد فطوراً ؟

انجذبت إليها ، ورفعـت ذراعى ، أتعلق بيدها الهاربة منى ..كانت يدى متسخة ، فقالت :

- حتى أنت يا جحش ؟

مارس ١٩٩٢

بـورتـريــه للصبــى

(١)

قبل طلوع الشمس . كان نائماً ، بين إخوته ، على الفرن ، فى " القاعة" الدافئة ، غرز أبوه الخيرزانة ، فيما نبت من لحم ، على عظامه الطرية ، تأوه ناهضاً .. فى الحارة لم يكن قد تخلص من آخر خيوط النعاس . تبع أباه فى تبرم وسرور ، ألن يذهب لأول مرة إلى السوق ، إلى البندر ، يركب السيارة ، وفى الليل ، يحكى ، متباهياً بأنه رأى ، وسمع ، واشترى حذاء وأشياء أخرى لزوم المدرسة .

فى طريقهما إلى المحطة ، كانت العتمة تنحسر عن الأجساد النحيلة، بوصول السيارة ذابت كتل البخار المختلط بالنوم ، وتحايا الصباح ، والدعاء بزيادة الرزق .. مع خلق الله ، وحيواناته ، اندفس الصبى أعلى السيارة النقل ، متربعاً على القش المبتل ببول البقر ، وأبل الغنم ، والندى . تعلقت عيناه بقرص الشمس الأحمر وهو يوشك على السقوط، لولا حبال الله ، المتدلية من السماء .

خرج الرجل من الكابينة ، مدّ إليه يده الدافئة :

- نط .

تلقاه بيده الأخرى . وقبل أن يقرص ثلج الأسفلت قدميه ، أمره أبوه بالانصراف ، بالاختفاء عن عينى السائق . ساحت عينا الصبى فى فضاء المحطة . الرجال والنساء ، النازلين والمشاة. صفع أذنيه محذراً :

- امش يا لطخ قدامى .

دفعـه . وبظفره جرح أذنه ، ولعن صـباحه الأغبـر ، ثم راح للسائق ، أعطاه أجـرة نفـر واحـد.. بريزة وانتظر " الفكة " أتاه صـوت الســائق ، من الخلف ، مع وقع الأقدام :

- أنت يا ابنى .. هات أجرتك .

فى طريق السوق ، طاشت عيناه فى الزحام ، منادى الـعرقسوس ، باعة السجائر ، أصحاب الشوارب ، أسراب الجاموس ، والغنم ، عسكر البوابة. امرأة تدخن الجوزة ، و من أنفها يخرج الدخان . تكعبل ، وضغط أبوه على يده :

- آه .. يا ابن الكلب يا أعمي .

بسرعة ، تخلص من يد أبيـه . مسح دمعة لم يستطع خنقـها . كتم دماء إصبعه المختلطة بالروث . ضحك من الحبـال الثعبانية الممتدة على الأرض ، المثبـته بأوتاد من حديـد ، ابتسمت له بائعـة العيش الفـينو والطعميـة . كان الأكل حلواً ، خالياً من " الردة " الغارق فيها عيشهم " السن" ، وكانت المرأة أحلى ، بقصة شعرها وضفيـرتها السارحتين من تحت المنديل ، إلى ردفيها ، وثدييهـا اللذين تعلق بهمـا رجل " قزعة " فـأفاق الصبى من سـرحانه ، على شخـرة غويطة،أغرقـته فى هدومـه،وبعزم أهلها،شـاطت كرة من البـصاق، تلقاها الرجل بيده ، والرجال يمنعونها عنه ، ثم لعنت آباء الرجال، وأمهاتهم .. اقتربت منه ، داعبت شعره،و ضمته إليها ضمة خفيفة ، انحنت، وباسته ، وهو فى غاية الكسـوف .. انتهى من تناول الرغـيف ،جهزت له آخر ، قالت بدلال :

- من غير فلوس .. وخلينا نشوفك كل أسبوع .

دس الرغيف فى "سيالة " جلبابه ، غسل رجليه من الجردل ، ووقف فى عين الشمس أمام " الفرش " لم يقل له البائع : امسح رجليك . مدّ قدمه اليمنى ، ليقيس فردة الحذاء ، متحاملاً على أبيه - الذى كان يتحسس الرغيف - ولكن انتبه ، والبائع يقول :

- يا حبيبى .. الجزمة مخلوفة .. هات رجلك الشمال .

(٢)

فى الضحى العالى ، كانت الجدة تنتظر . للمت أشلاء عمرها ، ببطء شديد ، مشت بضع خطوات ، متحاملة على عصا زوجها . افترشت مئات الذكريات والنوادر والحكايات ، جلست على الكرسى ، تلفح الهواء بأنفاسها الحارة المتواصلة، ولسان لا يعرف الشيخوخة ، وفى الهواء ، امتدت ساقاها الدقيقتان .

بما تبقى من نور عينيها، رأت الحذاء، وخيرات المدينة ، مدّت يدها ، قلّبت الرغيف ، قضمت لقمة ، لاكتها فى فم خال من الأسنان . حولها التف الصغار دون أن يجرؤ أحدهم على الكلام . همست كأنها تحدث نفسها :

- عشنا وشفنا .. جزمة جديدة، وعيش فينو ، الله يرحم جدودكم ، ماتوا من الجوع .. بكرة يروح المدارس ، ويسافر البنادر ، ويلبس البدل ، ويتوظف .. ياه ويبقى قليل الأدب ! .. يتكبر علىّ .. يطوّل لسانه على ست البنات .. ياللا..

انصرف الصبى بالرغيف المنقوص . حكى لأمه عن السوق والمدينة ، والرجل القزعة والمرأة الجميلة التى قبلته وأعطته هذا الرغيف .. كان العيال متحلقين حول الجدة العجوز . قالت الأم إن جده زار جدته هذه الليلة . كان عطشان ، وبعدما أحضرت له القلة اختفى . نادته بصوتها الواهن ، والرد يأتيها مبتعداً عنها إلى أن غاب عن سمعها تماماً . وبعد الشروق ، استيقظت فزعة ،وظلت تعيد عليهم ما رأت . طلبت أن يجهزوا له قلة ماء ، وإفطاراً ، وبنفسها ذهبت إليه ..

فى الخارج ،ارتفع صوت الجدة .. المرحوم .. رحمة ونور .. كان سيدى وتاج راسى .. هو قال إنه عطشان .. كان نفسى أسقيه . أنا غلطانه ؟! .. والله جريت أجيب له القلة ، ورجعت مالقيته .. وقمت من النوم افتكرت أنه مات ..قلبى انقبض : خير يارب .. والصبح رحت أزوره ، رجعت وضميرى مرتاح ..

وقفت فجأة ،مرتبكة وسعيدة. بضربة عصا، أفسحت طريقاً بين العيال ، لكنها لم تذهب ..كانت تناجى الغائب القادم .. اكتمل أمام عينيها بهيئته ، رحبت به ..طأطأت الرأس ، سعيدة بتخليها عن الكرسى له .. أجلسته .. استأذنته فى إحضار الطعام . رجعت وقد اكتست تجاعيد العمر بالخجل من زوج غاب عنها سنين .. لمحت الصبى يجلس على الكرسى ، ويحكى للعيال عن المرأة الجميلة التى كادت تضرب الرجل .. عن السينما التى لم يدخلها .. اعتدل مفتخراً بأنه لم يدفع للسائق شيئاً ..

(٣)

فى المصلى ، ترك أباه نائماً ، و اندس بين عيدان الذرة ، باحثا عن كوز

طرى ..فى هذا الوقت بالذات، يكون حارس العنب قد هده التعب .. عنقود واحد ، يأكله في الغيظ ، ليس حراماً .. هكذا يسمع .. وصل إلى رأس الأرض .. من بين أوراق الزرع ، مدّ رأسه .. لم ير الحارس ، ولم يسمع شخيره .اصطك بأذنيه وقع حوافر حادة.. قالت بصوت واهن : هش. طبطبت على رقبة الحمار. ثنى ركبتيه نائماً ، بكلتا يديها رفعت وركها، ونزلت . بدالها المكان خالياً تماماً ، إلا من هذا الصغير .. دنت منه ، وهى تغالب حزنها .. شعر الاثنان بالأمان . حمل عنها مقطفاً فارغاً، به ثوب ممزق ،تجأوزته إلى الداخل..توقفت واستدارت،فضبطته وهو يتأملها ، يكاد يتعلق بالضفيرة الهاربة من الطرحة .. أزالت عنه الخجل بابتسامة .. وضعت يداً على كتفه ، ومدت الأخرى إلى الأرض .. وتأوهت ..

تمتمت بكلمات لم يسمعها .. سرت فى أوصاله عدوى ارتعاش وجهها الأصفر.. تناولت المقطف منه ، همت بالكلام فعجزت .. اكتفت بابتسامة ، ماتت فى مهدها. عرض عليها أن ينادى أباه ، أو حارس الجنينة .. ردت بصوت مسموع :لا.. همّ يضحك وهمّ يبكى ، أراحت رأسه على فخدها ، وساوت شعره الخشن بأصابعها .. سقطت على وجهه شريحة من شمس آخر النهار .. قال : أنا خائف يا خالة .. مدت ساقيها على آخرهما .. استندت من الخلف ، على ذراعيها ..قالت : أنت رجل .. أزاحته جانبا .. بص يا ابنى.. تطوحت يميناً وشمالاً ، وهى ترتجف .. بص على السكة .. خطفت كوز الذرة من يده . دون أن تنزع القشرة راحت تعض بنهم النشوى ، يعلو قلبها ويهبط . والبطن منتفخ . بص على الحمار . اربطه. كان الحمار لا يزال يتمرغ فى التراب ، والسكة خالية إلا من الصمت .

كانت المرأة تستغيث . تصرخ بصوت شبه مكتوم . تعتصر الكوز بأسنانها، ولاتأكل منه شيئا . لونها يزداد اصفراراً .

أشارت إليه ، فوقف . ناداه أبوه .. يا ابن الكلب ، شاطر تسرق العنب وفيه واحدة غجرية نزلت تسرق الذرة .. تفادى الطوبة بالقفز إلى الأرض عائدا، و رأى وجهها شاحباً، ومكتسياً بالرضا، وساقيها ممّددتين ، وبطنها قد انتقل إلى الثوب الممزق . لا يظهر منه غير عينين ، ووجه ، وشعر خفيف ناعم .. الله يا خالة .. ولد حلو . لكنه خاف أن يقترب منه . منحته قبلة خاطفة .. عروسة .. عروستك .. أبوك شافني ؟ !

تنهدت ، بينما كانت تحكم لفّ البنيّة بقطع الثوب .. بسملت، و قبلتها، و برفق وضعتها في المقطف . مرة أخرى تنهدت . مسحت فخذيها وما بينهما، ثم دفنت الخرقة ، مدت للصبي يدها ، قامت في إعياء . أمسك باحدى أذني المقطف ، ودعاها - مشيراً - إلى تناول الأذن الأخرى .. قالت: الضنا غالي . حملت المقطف بين يديها . ضمته إلى صدرها . كان الحمار نائماً لا يزال ، انتظرت قليلاً ، وضعت نفسها فوق الحمار ، وساقيها في جهة واحدة ، أمسكت رقبته ، وهو ينهض ، تناولت منه المقطف ، سألها عن كوز الذرة ، فضحكت . احتضنت المقطف بما فيه ، وعدته بهدية بعد أيام ، قالت إنها سوف تزوجه هذه العروس ، وعاد يسألها عن كوز الذرة الطرى .

توحلت قدماه . تذكر أنه نسى الحذاء على الكوم ، سألته أمه عن كوز الذرة الطرى ، قال إن المرأة أكلته وهى تلد .. كانت جائعة هى وبنتها الصغيرة . والحمار من الجوع لم يهرب ، وضعت يدها على جبهته..

ولفّتهـــــا في الهدوم .. وحطتهـــا في المقطف .. وروّحت . جهزت الأم " طاسة الخضة " . وقالت لي أبوك شافني ؟! . أراحت رأسه على فخدها. استرخى ناعسا ، قالت لأبيه العائد من صلاة العشاء : هو العيّل له أمان تسيبه لوحده في الغيط لبعد المغرب ؟

(٤)

حتى بعد دخوله المدرسة ، مازال أبوه لا يطيق رؤيته في الحارة بعد العشاء، الليلة قال للعيال إنه سيلعب معهم .. أبوه سيتأخر ..

- يا ... ه ، معجزة ! .

حسده زملاؤه على مهارته ، تمنى الفريق الآخر أن يعود أبوه ، وما كاد يجري في الشارع الكبير ، حتى اصطدم بمن أمسكه من رأسه .

- قدامي يابهيم ...

جرى إلى الدار . أمه لم تسأله عن السبب . أخذته في حضنها . هدهدته، هو يبكي ، وتخرج الحروف متقطعة ، مغسولة بالنحيب .

- شتمك ؟

- قال لي يا بهيم .

- أحسن ما يقول لك يا جحش !

ضحكت ، وضحك معها . دبت أقدام الأب في الدار . قال له انكتم فانكمش، ولم يرد ، ضمته أمه إليها . كأنها تحميه من لسان أبيه .

- بالراحة على العيّل يا أخي ، خلّ في قلبك رحمة .

بنظرة واحدة التزمت الصمت ، قبل أن يأمرها به .

– عندى فكرة .

– هأو .. فكرة ؟

– نكتب فيه شكوى للنقطة .. البيات هناك ليلة واحدة ، يعرفه إن الله حق ، ويسيبك تلعب كل ليلة .. قلت أيه ؟

– آ .. اكتبى أنت يا فالحة .

– لو كنت دخلت المدرسة سنة واحدة حتى !

فى الضوء المختنق مشى على أطراف أصابعه . إلى الحجرة الأخرى يحضر الورق والقلم . حاصره صوت أبيه زاعقاً ومتوعداً ، نسى أمه ، والقلم ، والورقة ، والعيال ، واللعب ، والمدرسة ، والنقطة ، والمرأة التى باسته فى السوق، والمرأة التى أكلت كوز الذرة .وابنتها الصغيرة ، والحمار ، والرجل القزعة ، والسيارة النقل والسائق ، ونام مكانه ، مقرفصاً .. ولم يجرؤ على العودة إلى أمه !

يوليو ١٩٩٣

السكين

.. لما جذبته الحارة ، كانت قد فتحت باب الدار .. وانتظرت .

بيدها اليسرى لقمة خبز جافة .. وباليمنى سكين . التحم بكتل الظلام ، وفيه انغرست أقدامه فيما اهتز ذيله بهدوء . بأصابعها اعتصرت السكين ، وهبط قلبها متدحرجاً نحوه .

.. ما لغير هذه السكين خلقت أيها الكلب ...

تقدمت خطوة ، ألقت إليه اللقمة . فى الهواء رقصت السكين فتحول جسد الليل إلى شرائح ساخنة .

.. هو الليل دائماً ..

.. ظلام ، والظلام كلاب ،وعفاريت ، والعفاريت ضاقت بها الدنيا كلها، فسكنت بيتها .. سكنت زوجها .. منذ متى ؟ ، لم تعد تتذكر . تباعدت الليالى وتشابهت ، تتذكر غيبته ، لم يكن يتأخر بعد صلاة العشاء إلا ساعة على المصطبة الخارجية ، فى قهوة بدوى ، مع أصحابه الشغّيلة فى أراضى المخاليق ، امتدت أمام عينيها مساحات الانتظار ، ثم احتضنت حزمة العيال ، ونامت .. نامت العين، وشرد العقل،.. استعاذت بالله من الجن والشياطين ، بصقت فى صدرها .. اللهم اجعله خيراً .

الصبح . اندفع سيل من عيال الحارة ..

- يا خالة بهية .. الحقى !

جرت إلى الباب ،نثرت نظراتها الحيرى فأغمضوا عيونهم اكتشفت أنها عارية الرأس ، وأن عيونا من جسمها البهّى تخترق ثوب النوم البالى.. غمرها الارتباك .

- يالهوى ! ... خير يا رب .. ايه يا أولاد ؟

فتحوا عيونهم ، واستداروا . كان طوق القميص مشقوقاً ، ضمته بلهفة ساترة ثديها المتسلل من الشرفة .

- الحقى .. عم مهران .

- مهران !

الخبر فى البلد ، سرى مع خيوط النهار ، بعيونهم رأوا ، مهران هو مهران، بلحمه وشحمه ،يغمغم بكلام غير مفهوم، مزبدا على زاويتى الفم . اقتربوا منه .. مالك يا مهران . تعال .. قم يا مهران .. قام نصف قومه ، ثم جذبته الأرض ، وقعد . استرق إلى الواقفين نظرة ثم بكى ، وعلا نشيجه .

- مهران .. ارحم نفسك يا أخى .

مثل زوبعة فسية العفريت ، دار حول نفسه ، اهتزت الدائرة المحيطة به وتكلم مهران :

- اتركوه .. لن أتركه .

ابتلعوا حسرتهم فى صمت، ونسجوا حوله ظلالا من الشفقة .

- العوض على الله فى الجدع !

- كان معنا فى القهوة بعد صلاة العشاء !

- .. وبهية ؟!

بطرحتها السوداء ، مزقت الهواء ، كما مزقت دموعها وجهها المصموص ، .. مهران .. سيدى ونظرى وأبو عيالى .. أنا بهية .. ردّ علىّ

.. قم يا مهران .. ارحمنى وارحم نفسك .

كأنه لا يسمع.. أمسكت بوجهه..استرخى مستريحا ولم ينطق بكلمة ، اندلقت صرختها قادمة من الأعماق ..من أصابع القدمين واليدين .. من الرأس والقلب :

مهران انخرس يا ناس !

اقتربوا منه ، وحملوه ، والثور الذبيح ينتفض ، ضاربا برجليه ويديه.. فى بحراية القاعة ،التف حوله أقارب زوجته .. ثم دخلت احداهن بطاجن به قوالح الذرة المصفوفة كهرم صغير .. طابت النار ، وبدت كعين الجن الأحمر، بذرت البخور ، فعامت السحب فى جو القاعة .. دوامات ، دوامات .

لم يقبل أن يخطّى النار ، ولم يرفض .

جاءت الجارة بإبرة وعروس من ورق ...

.. شكة فى عين كل نسوان الحارة .. ورجالها وبناتها وصبيانها

.. شكة فى عين كل من شافك ولا صلى على الحبيب النبى

.. شكة فى عين كل من لمح جمالك ولا قال باسم الله

.. شكة فى عين فلقت الحجر على سيدنا الحسن والحسين

.. رقيتك واسترقيتك من شر ما خلق

ومن شر حاسد إذا حسد

يكفيك شر الأذية

والعين الردّية

بحق جاه سيدنا النبى ، وأهل بيته ، ترجع لك صحتك وشبابك يا مهران يا ابن حوا وآدم .. آمين ، آمين .

ألقمت النار العروس ،للحظة سرحت ، رأوا فى نورها بهية منكسة الرأسة ، كئيبة الوجه مصفرته ، همس أكثر من صوت :

– مدّى يدك يابهية .

أخذت حفنة من البخور الهائمة ، غسلت بها رأسه ووجهه ، والنساء يبسملن ،

– سبع مرات يا بهية .

قامت الجارة ، بحثت عن "طاسة الخضة " ، ثم ملأتها بالماء ،ووضعتها على السطح ، تتشرب الندى ، والظلام ، وحليب النجوم، حتى الصباح.

* * *

يوم الجمعة .. بالضبط أثناء الصلاة ، جمعتهم حجرة مظلمة .. بهية وأختها والشيخ. طلب " الأثر "، ناولته طاقية مهران ، صمت قليلاً ، ثم انزلق داخل الجدار ، من باب ضيق ، وعاد ..

.. فى غبشة المغرب ، اندفعت امرأة من ذيل الحارة . لم تتمكن بهية من رؤية وجهها، دخلت حارة أخرى، والليل يكسو الحارة بخيمة من ظلام ، وسمعنا أصواتا .. كلها أنثوية .. بسم الله ومن الله وإلى الله وعلى الله ولا غالب يغلب الله .. توكلا يا كوش أنت ونوش وألقيا بينهما العدواة والبغضاء إلى يوم القيامة ، صدود لا يعود بين مهران وبهية ...

ثم إن الصوت أصابه الذبول ، مخلفا رائحة نفذت فى حبيبات الجسم فامتدت الأيدى تسد الأنوف .. وبثقة قال الشيخ :

– هى بخور من شعر قط وشعر كلب وشعر خنزير ، وصبر ومرّ وضعت على " العمل " ، ودفنت تحت عتبة الدار .. ومر عليها مهران ثم انتقل " العمل " ودفن فى تربة مهجورة ، بعد أن لفته المرأة فى خرقة قديمة ، فيها قشر بيض ودم حيض و ..

– مهران غيّر عادته ؟

هزت رأسها ، كأنها لم تفهم ، فيما صوبت أختها إلى الشيخ سهمين من نار..نبت على خديها وردتان..ثم ردت فى ارتباك..لا..لا. دبت أقدام الليل ..ملأ العيال بطونهم بالطعام ، وبالدموع عيونهم ، على الذى لم يعد يتكلم ، والذى هو أبوهم ..تسللت إليه ،وهو متكوم فى الركن ، مشت على أطراف الأمل ، تتراءى لها الأحلام القديمة .. تحسست خشونة وجهه . فانتشى جسدها المنبر، امتدت يداها – وهى تقبله – إلى طرف الجلباب المتسخ ، فجذبه بشدة لم يغادرها الحلم ، مسحت حبال العرق الممتدة على الجبهة ، وبأصابعها النحيلة مشطت شعره ، ضمته إليها .. دفن وجهه بين يديه ، وتكور جسد الرجل الذى هو زوجها .. تراجعت قليلا فكّت ضفيرتيها ، داعبته بشعرها الفاحم، و أغمض عينيه ثم فى صمت ابتلعت خيبة أملها ، ونامت ..

بالليل .. صرخ .. تصدّعت جدران السكون ، وسقط سقف الليل مغشيا عليه .

- الولد يا مهران .. لومات فأنت ميت ..لن أتركك .

بقدر حزنها على جنونه ، كان فرحها بانفكاك عقدة لسانه ..

- مهران .. أنت بخير يا سيدى ،، اقعد .. وحّد الله ..إلهى وأنت جاهى ، يصرف عنك ال .. بسم الله الرحمن الرحيم .. قل أعوذ برب الناس .. قل أعوذ برب الفلق ، من شر ما خلق ..

إلى حضنها ضمته ، طبطبت على رأسه وظهره ، ثم أراحت رأسه على الوسادة وغطته.. وخرجت إلى بحراية القاعة ..كان العيال نائمين.

* * *

الشيخ حجازى .. شيخ الطريقة البرهمية فى البلد ، سيخدمها لوجه الله ببركة سيدى إبراهيم الدسوقى مؤسس الطريقة ، وحفيد الإمام على كرم الله وجهه ..ليلة الجمعة .. قبيل " الحضرة " ، يعرض شكواه على هيئة المحكمة الباطنية ، بحضور النبى صلى الله عليه وسلم وخلفائه الأربعة الكرام ، والأئمة الأربعة ، والأقطاب الأربعة ، وقطب الوقت ، وصاحبة الشورى رئيسة الديوان أم هاشم السيدة زينب بنت الإمام على رضى الله عنه وأخويها الحسن والحسين ، وجميع الأولياء .

فى مجلس الذكر أخذته الجلالة.وقع على الأرض سابحا فى الملكوت.

- مدد ! !

رددها كثيرا .. مدد ! .. يا رئيسة الديوان يا أم هاشم .. يا سيدى إبراهيم يادسوقى مددا .. يا سيدى على بيومى . على طول المدد .. ابتسم الشيخ حجازى :

- يا مولانا .. أنت فيك شئ لله .

رد أحد المريدين :

- الشيخ مهران واحد من أهل الله .

ناولوه رغيف خبز ، عليه بعض الملح . أكله فى صمت ، ثم استف حفنة من " الدقة " .

- بالشفا إن شاء الله يا مولانا !

انتبه الشيخ حجازى والحاضرون على من يسد فراغ الباب .. كلهم يعرفونه .

- معقول !... سعيد .. صرت رجلا يا ولد .. ادخل .

لاحظوا عليه الفتور ، لكنه دخل ،وأسئلة الشيخ تلاحقه ..متى رجع من مصر ، وماذا فعل فى الامتحانات ، وأخبار المظاهرات فى الجامعة .. صافح مهران بحرارة ، واحتضنه بشوق . امتدت يده لمصافحة الشيخ ... وإلى فم سعيد ارتفعت يد الرجل .. ياه !! .. منذ كم سنة يا شيخ حجازى .. كنت آتيك باللبن ، يوم " المولد " وتعطينى " الدقة "، وأقبل يدك ، متمسحاً ببركة ، حدثتنى عنها أمى !

بالشاب تعلقت عيونهم . أهمل ملاحظتهم ، كما أهمل اليد المعلقة، ثم أمسكها سعيد باستهانة..كم غسلت يدك قبلات الصبايا والرجال والنساء!

ثم أنزلها .. قشرة من خجل كست وجه الشيخ والمريدين .. انحنى إلى العم مهران ، ودعاه إلى القيام معه . من ذهوله صحا الشيخ :

- اذهب أنت فى صحبة الشيطان .

هز سعيد رأسه لا مباليا ، وحاصرته تعليقات المريدين :

- الشيطان شاطر يا سيدى .. هو ولد طائش .

- لا تنس أنك نجحت ببركة الأولياء .

* * *

تناولت يديه ، فتخلص - بقوة الجن - من يديها الهزيلتين . انزوت وراء الباب .. هى التى تخشى الشماتة وتحرقها جمرات الليالى ..ولا يطفئها إلا طشت الماء المنسكب أمام العتبة . ثم توارب الباب ، وتجلس فى وسط الدار ، تنشغل - رغبة فى أن تراها الجارات - بشعرها المغسول .. تتساقط منه حبات اللؤلؤ ، منحشرة فيه ، راحلة عنه ..على رأسها تحبك المنديل وفى دلال تنساب الضفيرتان .. تتلقى التحايا ، وتنشرها على الجارات ، تنحنى - وهى تكنس أمام الدار - فتتدلى الضفيرتان " تصافحان الأرض المرشوشة بماء الاستحمام .. تحرسان جيدها الجميل .. ترمى اليمنى إلى الشمال ، والأخرى إلى اليمين ..تتلفع بهما وتتباهى .. والقلب فى متاهة الرجل . يبحث عن دليل .

قبل هبوطه من السيارة ، أخلوا له طريقا .. يتعمم بشال أبيض ، وبعينه اليمنى عطب .. فى وسط الدار ، أمسك الشيخ مبروك بجبهة مهران.. ترنح الواقف ساقطاً على الأرض.. بانت عورته ، فدارت النساء عيونهن ..

- من البر أم من البحر ؟

كأن شبع موتا .

طلب الشيخ مبروك عصا .. ضربه برفق .. تململ مهران .. ولم يرد .. ضربه بقسوة ، صرخت بهية :

- حرام يا عم الشيخ .. الرجل دايخ .

تنهد الرجل :

- حوشوا الولية من هنا .

ضربه مرة أخرى .. تقلب ، ورفس برجليه ، ولم ينطق .. أمر بإلقائه فى الترعة .. الرجال غطّسوه فى الماء ..بدا أقوى ، لكنهم - بأمر الشيخ - استنهضوا عزمهم ، وضغطوا عليه حتى خرج من تحت أيديهم منتفضا :

- روحى طلعت يا أولاد الكلب .

تمدد أمام الشيخ .. عاد يضربه بشدة ، وهو يبكى ويطلب الرحمة، وأخيرا قال :

- كنت قاعدة مع أولادى ، على بر الترعة ، فداس مهران ولدى ، وهو الآن مريض ..

- ما كان يقصد .. أطلعى .

- لا .. لازم يموت إن مات ولدى .

طلب إحماء عود من حديد " وهددهابه ، استغاثت :

- أطلع من عينه ..

- من قدمه .. أو أحرقك فى الفرن .

.. ارتعشت القدم ، دون ضرب .. حتى هدأ تماما .. ثم فتح عينيه فى

دهشة، تلقفته أحضان الرجال ، والزغاريد تسيل أفواه النساء رقيقة مذيلة بلحن جميل .

انصرف الناس بلا ظلال . همس الشيخ مبروك إلى بهية بكلمات لم يسمعها أحد .. ثم اعتذر - بصوت مسموع - عما كان منه .. ومشى إلى السيارة ..

نام الأولاد ..

وضحكت لنفسها أمام المرآة .. رأت عروسا في ليلتها .. ابتسمت للعروس ،فبادلتها الابتسام .أطفأت المصباح. بلهفة العطشى ، مدت يديها ، تتلمس الطريق إلى السرير .. اصطدمت بلحم بارد .. ارتقت الفراش .. كان ينزوى محتميا بالجدار ..أدارته إليها ..

كان يبكى بكاء حقيقياً ..

.. ما وجدت الدفء . لا شئ تلوذ به من ثلج المفاجأة .. قبل أن تفكر تذكرت همسات الشيخ مبروك .. آه..

.. فتحت باب الدار ، وانتظرت .. بيدها اليسرى لقمة خبز جافة .. وباليمنى سكين ، على رأس الحارة وقف أسود الكلاب ، ثم انزلق من عنقها وغاص في كتل الظلام ، وفيه انغرست أقدامه .. بأصابعها اعتصرت السكين .. هبط قلبها متدحرجاً نحوه .

.. ما لغير هذه السكين خلقت أيها الكلب ..

هو سر لا يعرفه سواها ، والشيخ مبروك .. قلب لكلب أسود . يأكله مهران يسترد به رجولته .. عاد الرجل بدونها .. لوعلم أنه أكل قلب كلب .

فماذا يفعل ؟! .. لن يفعل شيئا ، سوى أن يموت ، إنه ميت لا شك - حزنا على رجولتـه .. من سيقول لـه ؟ . لن يعرف ، وكيف يعرف ؟ ... مـهران سيدى وتاج رأسى ، وأبو عيـالى .. من لى سواه ؟ ... ألا يكفى برد الليالى الطوال الفائتة . .

تقدمت خطوة ..

ألقت اللقـمة ، أمـام كتلة الليل الصـغيـرة المترنحـة .. انكمشت قطـعة الظلام ، وترددت .. ثم تحـركت نحوها .. أمسكهـا الكلب . حددت بهـية موضع الرأس .. فى الهواء ، رقصت السكين ، مخترقة جدار الليل...

سبتمبر ١٩٨٩

القســـم الثــالث

الجـــــلاد

.. وبدفعة من يده الغليظة . تجد لنفسك مكاناً . بين أكوام اللحم الغارق في العـرق . قـال لك " كم قـبضت من هـذا اليمنى ؟ " بـنظرة ذاهلة تمسح الحجـرة . عشـرات الوجوه . من الأركـان تتجـه إليك عيون . قلـت " عابر سبيل .صنعتُ فيه معروفاً " لم يسألوا. فقط أحدهم همس. الأخ مصرى ؟ تجيب نعم : يرد آخر : يا أهلاً بالمعارك ، نظر إليك بشـراسة " تخون البلاد يا مصرى ؟ " تبحث لقدمك اليسرى المعلقة عن موضع.تدوس رجلاً لا تراه . يغـمغم بكـلمات مـبـتورة . يقـوم آخر. الـصفـعة أقـوى من قـدرتك على الاحتمال . قـال اليمنى فى انكسار " والله ما طلب شيـئاً ، ولا معى مال " . تستـريح لسـقوط جسـمك . يوسع آخـرون لك مكاناً ، تظل مـعلقـاً بين الأجسام والحـر والآهات . يتحدث بعضهم لغـة لا تفهمها ، قـفز من عينى الرجل التوسل . خـذنى مكانه فلا ذنب له " كـان الطريق طويلاً . أشار لك رجل . و فى لحظـة جلس إلى جـوارك .سـألك . أجبـت إنك ذاهب إلى العاصمة ، فى الشمـال . دون أن يسأل قلت إنك مصرى ،لك فى هذا البلد أصدقـاء . ليسوا جميعاً سائقين . وإنـك تقطع هذه المسافة وحدك. أحـياناً تستـريح على أحد المقـاهى المبعـثرة فى الطريق. ولا تشاهد فـيهـا إلا أفلام الكاراتيه . فكل ماعداها محظور . خلسة قد تقع عيناك على مشهد من فيلم مصرى . أو أجنبى . قبل بلوغ المقهى . وإذ تصل يغلق الجهاز فجأة. يطمئن إليك الرجل ، يفتحه مرة أخرى " والله يا أخى .. أوحشتنا الأفلام المصرية " قبل اقتـربك من إحدى نقاط التفـتيش.وحده استيـقظ الرجل.قال إنه يمنى، ويخشى علـى نفسه وعليك . وقـد تسلل من الجنوب . لا تزال معـلقاً بين

الأجسـام والحر والزفرات . تزدحم زوايا السـجن بالمستقبلين . يسألون عن الهدايا . من الحياء لا تنظر إلى أحد . صـفعة الشاب تلفح وجـهك . يقوم رجل . تنغـرس قدمـاه - وهو لا يبالـى - فى اللحم الحى . لا يصل إليك..

"مصرى يضرب بيننا ؟" واحد بعد الآخر. يقفز نحو الشاب . يلهب قفاه.

تزوغ عيناه. بأعلى صوته ينادى " ديشى.. ديشى مـارو " . يتحفز البنغاليون. في عيـونهم ينبت شرر الثأر له . بتـأفف تمسك كسرة خبـز . قالت لك " لا داعى للخوف " يصرخ عملاق مـصرى الملامح - كان يبدو نائماً - فى كل البنغـاليين . مهـدداً بأنه سيـسد بهم جـوعه . وكنت تمتنع عن تناول الطـعام الساخن واللحم .كانت ترسله إليك طمعاً فى رؤيتك ،ولو مرة كل أسبوع . قالـت " إنك ترتجف " قلت " متـردد وخائف " بأصـابعهـا الدقيـقة داعـبت شفتيك " لن يجرؤ زوجـى على سؤالى .. عليه فقط أن يأتى بى إليك .. ثم ينصرف ". وكلما يصل أحدهم إلى موضعه يتلقاه مصرى . فى حر الغرفة . تنصـهـر صرخـات الهنود والبـاكـستـانيين واليـمنيين.يطالبـون بالخـروج. يستـغـثيون من حـرب الأيدى والأرجل، الدائرة بين المصريين والبنغـاليين . أشرت إلى السيارة . وأقسمت للضابط أن يمنياً غيره لم يركبها . قال " هكذا أنتم تجيدون المسكنة ". يفتح الباب. يهب الجميع وقوفاً. وهم دائماً وقوف . يلقى الحـارس بعض الطعام. ينـادى مصـرى : هاتوا الطعام هنا .. كـلامى مفـهوم ؟ بهدوء يصل إليه مـا ألقاه الحارس . قـالت " الطعام لذيذ .. أليس كذلك ؟ .. كانت تبدو ألذّ وأجمل . سألتها بينما تنهضان فى تكاسل "هل سبقنى إليك مصرى آخر ؟ " ينشغل الرجل بتوزيع الطعام . يدفع بيسراه يداً تتخبط فى الزحام . يسـد فراغ الباب قادم جـديد . كهل وقور. يسـأل :متى

نرحل ؟. لا يكلفون أنفسهم جهد السخرية من سؤاله الساذج . يا ترى النهار دا أية ولا كم فى أيام ربنا يا حاج. بعفوية يرد الرجل : بالهجرى ولاّ الميلادى ؟ يتفادى ثالث نظرة غضب من أحد الهنود : هاوو .. باللا وندى. انحدر بصرك من خصاص النافذة إلى الشارع . كان الرجل منتظراً فى سيارته. امتصت رعشة جسمك الطارئة. باحتوائك من الخلف ،"لا تخف". كانت قد نزعت ثيابها . وألقت بها كيفما اتفق " أنت أول مصرى ..سوف أخلص لك ". يبكى الحاج دموعاً وعرقاً . بيده " بقجة ". يخرج من جوفها أشياء. تتدلى أحشاؤها أمامه : أول ما نرجع يسألون عن الشيلان والمسابح . رأتك أول مرة . فتنتها فتوتك . غمزت بعين لا يبدو منها غيرها . قالت بارتياح وهى ترتدى ملابسها " لن أشرك معك أحداً أيرضيك هذا ؟ " يتسم الحاج : سأقول إنها هناك تسبح بحمد ربها ! . فى لمحة عين قبضوا علىّ .انتهيتُ من الحج . قلت يا هادى شهر أو سنة واعود ، لكنهم أذكى من بنى آدم . يصلك نصيبك من الطعام . اليوم موعدك الأسبوعى معها . تبتلع بصفة كادت تفلت منك . وتذهب بك إلى الساحة . هناك تجلد ثمانين جلدة . على أنك لم تفعل شيئاً . وفيما هى تتعرى أمامك . كانت آثار ضرب مطبوعة على الصدر والظهر . أجابت عن سؤال ظل حبيس صدرك " بعض رجال الشرق الأقصى متوحشون " . وكنت تتعرى للجلاد...

يوليو ١٩٩٣

للمؤلف

١ – مرافئ للرحيل – قصص – الهيئة العامة للكتاب ١٩٩٣

٢ – حديث الجنـود – روايـة – الهيئة العامة لقصور الثقافة ١٩٩٦

الفهـــرس

قائمة إصدارات
مركز الحضارة العربية

روايات ..

إينارو	د. على فهمى خشيم
تحولات الجحش الذهبى	لوكيوس أبوولوس ترجمة د.على فهمى خشيم
مسالك الأحبة	خيري عبد الجواد
العاشق والمعشوق	خيري عبد الجواد
الخروج إلى النبع	محمد قطب
حافة الفردوس	نبيل عبد الحميد
الدميرة	د. عبد الرحيم صديق
حمدان طليقاً	أحمد عمر شاهين
ترانزيت	ليلى الشربينى
مشوار	ليلى الشربينى
الرجل	ليلى الشربينى
رجال عرفتهم	ليلى الشربينى

قصص قصيرة ..

مطرية الغروب	جمال الغيطانى
مخلوقات الأشواق الطائرة	إدوار الخراط
حرب بلاد نعم	خيرى عبدالجواد
حكايات الديب رماح	خيرى عبدالجواد
حرب أطاليا	خيرى عبدالجواد
سيرة عزبة الجسر	سعد الدين حسن
خلف النهاية بقليل	وحيد الطويلة
الممنوع من السفر	شوقى عبد الحميد
شجرة الخلد	سعد القرس
شهقة	سعيد بكر
أيام هند	سيد الوكيل
فرد حمام	يوسف فاخورى
خبرات أنثوية	قاسم مسعد عليوه
الفوز للزمالك والنصر للأهلى	عبد اللطيف زيدان
ليس هناك ما يبهج	عبده خال
لا أحـــــد	عبده خال
أحزان رجل لا يعرف البكاء	خالد غازى
الشاعر والحرامى	عزت الحريرى
رشفات من قهوتى الساخنة	محمد محى الدين

شعر ..

سراب القمر	فاروق خلف
إشارات ضبط المكان	فاروق خلف
قصائد حب من العراق	البيــاتى وآخرون
أول الرؤيا	إبراهيم زولى
رويدا باتجاه الأرض	إبراهيم زولى
نصف حلم فقط	عماد عبد المحسن
منيـــا تناديـنـا	طارق الزياد
صلاة المودع	صبرى السيد
من فصول الزمن الرديء	درويش الأسيوطى
غربة الصبح	محمد الفارس
الغربة والعشق	مجدى رياض

عطر النغم الأخضر	عمر غراب
العجوز المراوغ يبيع أطراف النهر	نادر ناشد
هذه الروح لى	نادر ناشد
فى مقام العشق	نادر ناشد
ندى على الأصابع	نادر ناشد
إذهب قبل أن أبكى	د. لطيفة صالح

مسرح ..

هذه الليلة الطويلة	د.أحمدصدقى الدجانى
اللعبة الأبدية .. (مسرحية شعرية)	محمد الفارس
ملكة القرود	محمود عبدالحافظ

دراسات ..

آلهة مصر العربية	د . على فهمى خشيم
رحلة الكلمات	د . على فهمى خشيم
بحثاً عن فرعون العربى	د . على فهمى خشيم
أباطيل الفرعونية	سليمان الحكيم
مصر الفرعوبية	سليمان الحكيم
هاجس الكتابة	د . أحمد إبراهيم الفقيه
تحديات عصر جديد	د . أحمد إبراهيم الفقيه
حصاد الذاكرة	د . أحمد إبراهيم الفقيه
الجات والتبعية الثقافية	د. مصطفى عبد الغنى
ضد هدم التاريخ وموت الكتابة	أحمد عزت سليم
فى المرجعية الاجتماعية للفكر والإبداع	محمد الطيب
زمن الرواية : صوت الحكمة الصاخبة	مجدى إبراهيم
البعد الغائب : نظرات فى القصة والرواية	سمير عبد الفتاح
أعلام من الأدب العالمى	على عبد الفتاح
المثل الشعبي بين ليبيا وفلسطين	خليل إبراهيم حسونة
أدب الشباب في ليبيا	خليل إبراهيم حسونة
العنصرية والإرهاب فى الأدب الصهيونى	خليل إبراهيم حسونة

تراث ..

كشف المستور من قبائح ولاة الأمور	د . أحمد الصاوى
رمضان .. زمان	د . أحمد الصاوى
القصص الشعبى فى مصر	إعداد خيرى عبد الجواد
إغاثة الأمة فى كشف الغمة	
الفاشوش في حكم قراقوش	
الحكمة المدنية لابن المقفع	

فنون ..

ماهى السينما	صلاح أبو سيف
قضايا المونتاج المعاصر	د . عفت عبد العزيز
الصوت والضوضاء	د . مصطفى عبد المطلب

بالإضافة إلى :

كتب متنوعة : سياسية - قومية - دينية - معارف عامة - أطفال .

خدمات إعلامية وثقافية (اشتراكات) : ملخصات الكتب - وثائق - النشرة الدولية - دراسات عربية - معلومات - ملفات صحفية موثقة.



٤ ش العلمين عمارات الأوقاف
ميدان الكيت كات
تليفاكس : ٣٤٤٨٣٦٨

شجرة الخلد

فى الفجر، نهض البحر متكاسلاً
، نفضت عن عينيها بقايا نعاس ،
بدا البحر من النافذة بلا نهاية .
احتضنت التليفون همست "كنت
أريد أن أراك"، وضعت السماعة ،
ابتسمت لصورتها فى المرآة "صباح
الخير يا أنا" مرة أخرى ، استلقت
على السرير ، تعرت إلا من شعرها
، راحت تساويه، وتعابثه ، وتمشطه
بأصابعها الدقيقة . احتضنت نفسها
بقوة ، أفاقت على الرنين . قالت
لخطيبها "كنت أريد أن أراك" .
أهدته قبلة وابتسمت للتليفون ،
ولصورتها فى المـرآة .

◆





